

الصلات العلمية بين علماء القرويين وعلماء شنقيط

د. الحافظ ولد العالم (*)

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمدا عبده ورسوله.

صلى الله وسلم عليه وعلى آله وصحبه، ومن اهتدى بهديه واستن بسنته إلى يوم الدين.

أما بعد:

فاستجابة لدعوة كريمة مقدرة مشكورة من رئيس مركز دراس بن إسماعيل لتقريب المذهب والعقيدة والسلوك التابع للرابطة المحمدية للعلماء؛ أستاذنا الدكتور عبدالله معصر حفظه الله تعالى، بتاريخ: 1 ربيع الثاني 1432 هـ الموافق: 07/03/2011 م، للمشاركة في الندوة الدولية التي يعترزم المركز تنظيمها أيام الخميس والجمعة والسبت 21 و 22 و 23 أبريل 2011 في موضوع: «جهود علماء القرويين في خدمة المذهب المالكي الأصالة والامتداد».

(*) باحث متخصص في المذهب المالكي من موريتانيا.

فقد حاولت أن أشارك مع الشيوخ بسهم، ولهم فضل سبق، وللقائمين على الندوة أجر القصد والعمل الصالح، خدمة لمذهبنا وسلفنا الصالح.

ولا يتسع المقام لذكر هذه الصلات على نحو مفصل، لأن ذلك يستدعي الرجوع إلى كثير من الرحلات العلمية، وكتب التراجم والفهارس والفقه والنوازل والمراسلات العلمية، وكتب التصوف والمناقب... وهذا ما لم يحصل لضيق الوقت المخصص لإعداد المشاركة، ووجودي خارج بلدي علماء القرويين وعلماء شنقيط، إبّان إعدادها، مع قلة البضاعة، والتطفل على هذه الصناعة.

وقد جاءت هذه المحاولة في مبحثين يسبقهما تمهيد وتليهما خاتمة.

فالتمهيد: كان الحديث فيه عن كلمتي «القرويين وشنقيط» الواردتين في عنوان البحث.

والمبحث الأول: في ذكر بعض علماء الشناقطة الذين ربطتهم صلات علمية بعلماء القرويين أخذاً وعطاءً.

والمبحث الثاني: نماذج متنوعة من الصلات العلمية بين علماء القرويين وعلماء شنقيط.

والخاتمة: تتضمن أهم النتائج التي تم التوصل إليها.

التمهيد

قبل تناول الصلات العلمية بين علماء القرويين وعلماء شنقيط، أرى من المفيد التعليق - باختصار شديد - على كلمتي: (القرويينو شنقيط) الواردتين في عنوان البحث.

1- كلمة القرويين: نسبة إلى جامع القرويين. ويكفيه شهرة:

- أنه يعتبر من أقدم المعاهد الدينية والعلمية في المغرب والمشرق الإسلاميين، فقد كان تأسيسه كما هو معروف سنة: 245 هـ (أي قبل إنشاء جامع الأزهر بأزيد من قرن، لأن الأزهر أسس: سنة 361 هـ).

- أن الفضل الأكبر في انتشار المذهب المالكي في ربوع المغرب الأقصى يرجع بالدرجة الأولى إلى دور هذا الجامع العظيم⁽¹⁾.

- أنه قد احتضنته العاصمة العلمية للمغرب: مدينة فاس التي أسسها الإمام إدريس بن إدريس بن عبد الله من سلالة علي بن أبي طالب كرم الله وجهه وفاطمة الزهراء بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولما عزم على بنائها رفع يديه إلى السماء وقال: اللهم اجعلها دار علم وفقه يتلى بها كتابك، وتقام بها حدودك، واجعل أهلها متمسكين بالسنة والجماعة ما أبقيتها، ثم أخذ المعول بيده فابتدأ بحفر الأساس، فلم تزل دار علم وإقامة سنة بركة دعائه⁽²⁾.

فأصبحت مدينة فاس قبلة للعلماء وطلبة العلم يقصدونها من كل الآفاق.. وعلى الخصوص بعد بناء جامع القرويين، واجتمع فيها علم القيروان وعلم قرطبة.. حتى

(1) وقد أسسته فاطمة أم البنين بنت محمد بن عبد الله الفهري القروي - نسبة إلى القيروان - . تنظر سلوة الأنفاس ومحادثة الأكياس بمن أقبر من العلماء والصلحاء بفاس (1/ 91-92).

(2) المصدر نفسه (1/ 75).

أطلق عليها (بغداد المغرب)، وفقهاؤها هم الفقهاء الذين يقتدي بهم جميع فقهاء المغرب⁽¹⁾.

2- شنقيط: هذه الكلمة تفيد انتساب هؤلاء العلماء إلى بلاد شنقيط: موريتانيا حالياً، من باب تسمية الشيء باسم بعضه. وهي في الأصل علم على مدينة قديمة تقع في ولاية آدرار⁽²⁾ تبعد عن عاصمة الولاية: «أَطَار»⁽³⁾ (90) كلم، وعن العاصمة أنواكشوط: (525) كلم، وقد تأسست مدينة شنقيط كما يذكر سنة (660هـ) على أنقاض مدينة آبير: «شنقيط القديمة» التي توجد أطلالها اليوم على بعد⁽³⁾ كلم إلى الشمال الشرقي من شنقيط، وتعيد الروايات التاريخية تأسيس آبير إلى (160هـ).

وتعد مدينة شنقيط مصدر إشعاع ثقافي كبير وقد أصبحت منذ تأسيسها عاصمة للعلم ومنطلقاً للحجيج⁽⁴⁾.

ومن المعلوم أن الصلات العلمية بين علماء هاتين العاصمتين العلميتين لم تكن وليدة الأمس القريب بل هي ضاربة في جذور التاريخ، وعلى مختلف الأصعدة العلمية وكل المستويات، وقد ساهمت الجغرافيا فضلاً عن الدين واللغة في تعزيز هذه الصلات واستمرارها، وسأحاول الحديث عن بعض هذه الصلات بإيجاز في المبحثين الآتيين:

(1) عبد الواحد المراكشي، المعجب (ص 504). وابن أبي زرع، القرطاس (ص 36). نقلاً عن التواصل الفكري والروحي بين المغرب والمشرق الإسلاميين (ص 400-402).

(2) ومعنى آدرار: الجبل. الوسيط في تراجم أدباء شنقيط (ص 428).

(3) ومعنى أطار: الطريق، المصدر نفسه (ص 434).

(4) وتفسير شنقيط: عيون الخيل - لأنه كان قبل تأسيسه عيوناً تشرب منها الخيل - على ما ذكره العلامة سيد عبد الله ولد الحاج إبراهيم.

ينظر الوسيط في تراجم أدباء شنقيط (ص 422-424). وبلاد شنقيط المنار والرباط (ص 20). وتاريخ موريتانيا القديم والوسيط (ص 9).

✓ المبحث الأول: في ذكر بعض علماء الشناقطة الذين ربطتهم صلات علمية بعلماء القرويين أخذا وعطاء

تعتبر الرحلة - وهي السفر في طلب العلم - من أهم وأكبر الصلات العلمية، وقد عُرف علماء الشناقطة بكثرة أسفارهم ورحلاتهم العلمية إلى المغرب خاصة وإلى بلاد المشرق عموما عبر الطريق المغربي، وكانوا يزاجون في رحلاتهم بين الأخذ عن الشيوخ الأبرار، والحج والاعتبار، والزيارة إلى الحرمين الشريفين بنية الجوار، أو للهجرة بالدين عن أصحاب الغزو والاستعمار...، وربما حالت موانع دون مد تلك الرحلات فوجدوا في المغرب - أرض الكرم والسخاء، والعلماء والأولياء - موطن إقامة لهم فكان لمن شاء منهم أن يقيم بالمغرب حيث شاء ليجد أينما حل بها أهلا ودارا.

وسأذكر في هذا المبحث نماذج من علماء الشناقطة الذين ربطتهم صلات علمية بعلماء القرويين مبينا طبيعة تلك الصلات، في بعض الحالات.

من هؤلاء العلماء:

☞ شيخ الشيوخ في علمي المعقول والمنقول سيدي عبدالرحمن بن أحمد الصديقي الشنقيطي⁽¹⁾ (ت 1224هـ)

لم أقف حتى الآن على شيوخ هذا الشنقيطي - الذي كان مقيما في فاس - من علماء القرويين، إلا أن ما كتبه عنه علماء فاس يفيد أنه انتقل من مرحلة الأخذ إلى مرحلة العطاء، ومن مرحلة التقبل إلى مرحلة الإلقاء، حيث قال عنه عالم الأمراء، وأمير العلماء السلطان المولى عبدالحفيظ العلوي: أنه من أكابر العلماء في فاس، كان يُدرّس بفاس

(1) هو العلامة سيدي عبد الرحمن بن أحمد الصديقي الشنقيطي (ت 1224هـ).

شيخ الشيوخ في علمي المعقول والمنقول، كان إماما جليلا في سائر الفنون. له ترجمة في بغية المستفيد، وفي كشف الحجاب (ص 366). نقلا عن: بلاد شنقيط المنار والرباط (ص 512).

العليا، وكان نجباء وقته يأتون من فاس الإدريسية على أرجلهم لحضور مجلسه، وتخرج منهم على يده جماعة⁽¹⁾.

العلامة المجدد والأصولي المجتهد سيد عبدالله بن الحاج إبراهيم العلوي الشنقيطي⁽²⁾ (ت 1233 هـ).

مر الشيخ سيدي عبدالله على المغرب في رحلته إلى المشرق ومكث فيه سنوات يأخذ علم شيوخ فاس، ويعطي ما في صدره من علوم شيوخ شنقيط، فقد «ارتحل إلى الحرمين وقضى نسكه، ورجع ثم أقام بفاس مدة كثيرة للنظر والتحرير وتلقى على البناني⁽³⁾ وتلقى البناني عنه أيضا»⁽⁴⁾.

وأخذ سيدي عبدالله أيضا عن شيخ الجماعة بفاس العلامة التاودي المعروف بابن سودة⁽⁵⁾ بل ذكره من ضمن تلامذته المجازين منه عامة⁽⁶⁾.

(1) المنهل العذب السلسيل (26/1). نقلا عن مجلة المذهب المالكي العدد الثاني (ص 72).

وينظر: بلاد شنقيط النار والرباط (ص 512-513).

(2) هو سيدي عبد الله ولد الحاج إبراهيم ولد عبد الرحمن العلوي الشنقيطي (1152-1233 هـ). وصف بأنه مجدد. وكان في الحديث لا يبارى كأنها نشأ في بخارى، مكث أربعين سنة يطلب العلم، أخذ عن المختار بن بون الحكني الشنقيطي، والبناني الفاسي وغيرهما، وأخذ عنه من لا يعد كثرة. له ترجمة في فتح الشكور (ص 173-175). والوسيط في تراجم أدياء شنقيط (ص 37-40). وحياة موريتانيا للمختار بن حامد (2/207). وبلاد شنقيط النار والرباط (ص 513).

(3) البناني هو الإمام: أبو عبد الله محمد - ضا - بن الحسن البناني، علامة فاس ومحققها في جيله، أخذ عن أحمد بن مبارك ومحمد جسوس .. وعنه الشيخ الرهوني وأحمد بن الشيخ التاودي وخلق كثير. له تأليف من أشهرها، حاشية على شرح عبد الباقي الزرقاني ... (ت 1194 هـ). تنظر ترجمته في فهرس الفهارس لعبد الحي الكتاني (1/227-129). وفي شجرة النور الزكية (1/357).

(4) الوسيط في تراجم أدياء شنقيط (ص 38-39).

(5) هو شيخ الجماعة بفاس وإمام فقهاء المغرب أبو عبد الله محمد التاودي بن الطالب بن علي بن سودة المري الفاسي، قال عنه الرهوني: «حاز رياسة فاس والمغرب، لا أعلم أحدا الآن ممن ينتمي إلى العلم بالمغرب إلا وله عليه منة التعليم...» يروي عامة عن شيوخ المغرب: أبي العباس أحمد ابن مبارك اللمطي، وأبي عبد الله محمد بن قاسم جسوس ... وأخذ عنه من لا يعد كثرة من المشاركة والمغاربة. توفي بفاس: 1209 هـ. فهرس الفهارس والإثبات لعبد الحي الكتاني (1/256-260).

(6) فهرس الفهارس والإثبات لعبد الحي الكتاني (1/260).

كما أخذ - سيدي عبدالله - عن «عمر الفاسي شارح اللامية»⁽¹⁾.

وصلة هذ العالم الشنقيطي بالقرويين لم تنقطع حتى الآن لأن كتابه في الأصول الموسوم: بمراقي السعود لمبتغي الرقي والصعود. من المقررات التي تُدرس في القرويين حتى الآن.

﴿ الفقيه الصالح الطالب أحمد بن أطوير الجنة الحاجي الشنقيطي⁽²⁾ (ت 1265هـ)

صاحب الرحلة المشهورة: «رحلة المني والمينة» وهي نص طويل وصف فيه رحلته إلى الديار المقدسة منذ أن انطلق من بلاده شنقيط سنة (1245هـ) حتى عودته لها سنة (1250هـ)

وهذه الرحلة تزودنا بمعلومات هامة عن صلات هذا العالم الشنقيطي بعلماء القرويين، حيث يذكر أن كتابه: «فيض المنان في الرد على مبتدعة هذا الزمان» - الذي ألفه أثناء رحلته - أصبح من مقررات جامع القرويين بفاس⁽³⁾.

ويقول فيها أيضا: «وجئنا يوما إلى جامع القرويين فوجدنا فقيها يدرس في الأكرية من مختصر خليل، وسلمت عليه ومعني جماعة من حجاجنا، فتجارينا في الحديث، إلى أن بلغنا التعريف بشيخي، بعد أن سألوني عنه، فأخبرته أنه قرأ العلوم بفاس وشيخاه

(1) بلاد شنقيط المنار والرباط (ص 111).

(2) هو الطالب أحمد بن طوير الجنة بن عبد الله بن أحمد صائم الحاجي. عالم جليل ومؤلف وصاحب محظرة. أخذ عن الأخوين ابني عمه: أحمد سالم بن الإمام المتوفى سنة: 1239هـ بفاس. والسالك بن الإمام.

وهو من خاصة تلامذة سيدي عبد الله بن الحاج إبراهيم العلوي فقد مكث معه أزيد من عشرين سنة. (ت 1265هـ). انظر ترجمته في تاريخه (ص 25-30).

(3) الرحلة (ص 184). نقلا عن تاريخ ابن أطوير الجنة (ص 30).

في ذلك الوقت سيدي محمد البناني، وسيدي محمد التاودي بن سودة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، فقال لي الفقيه المدرس: أنت بضعة منا أوَّلُك منا وآخرُك منا⁽¹⁾.

إلى غير ذلك من الصلات التي ذكر أنها ربطته بعلماء وصلحاء فاس، ومنها أن سنده في الفقه يمر بأشياخ فاسيين.

ومن مؤلفات هذا الشيخ الشنقيطي اختصاره لنظم ابن شقرون المغربي في الطب: أحفظ منه قطعة - فكاية - تتعلق بأكل اللحم مشوياً. منها:

خير الشواء ما على الجمر شوي بلا دخان في قضيب
يلتوي يفتح للصحة ألف باب وهو الذي يعرف بالكباب⁽²⁾

العلامة المحدث محمد حبيب الله بن ما يابى الجكني الشنقيطي⁽³⁾ (ت 1363 هـ)

هذا الشنقيطي المهاجر الرحالة خادم تدريس العلم بالمسجد الحرام، له صلات بشيوخ القرويين ارتفعت إلى مستوى تبادل الإجازات.

حيث كتب رسالة إلى شيخ القرويين في زمانه، وإمام الحديث والفقه في أوانه: العلامة عبدالحى الكتاني⁽⁴⁾ (ت هـ). يستجيزه فيها بالمراسلة. جاء فيها:

(1) الرحلة (ص 43). نقلا عن تاريخ ابن اطوير الجنة (ص 29-30).

(2) ويروي أيضا في رحلته عن الفاسيين في هذا المجال: «خذ من الفجل الورق، من اللحم المرق ومن الحمام العرق».

(3) هو العلامة المحدث الحافظ المتبحر في أنواع الفنون أبو المواهب الشيخ محمد حبيب الله بن الشيخ سيدي عبد الله بن سيدي أحمد - الملقَّب ما يابى لكونه سخيًّا لا يرُدُّ سائلاً - الجكني الشنقيطي إقليما المدني مهجرا المكي موطنا (ت 1363 هـ). له مؤلفات كثيرة منها زاد المسلم فيما اتفق عليه البخاري ومسلم... له ترجمة في الأعلام الشرقية (1/ 374-375)، وغيرها.

(4) تنظر ترجمته في كتابه فهرس الفهارس (1/ 5 - 32).

بسم الله الرحمن الرحيم

إنه السلام التام، وغاية التحية الطيبة بالدوام، من عبدالله محمد حبيب الله بن الشيخ سيدي عبدالله بن ما يابا الجكني نسباً الشنقيطي إقليماً، المَدَنِيّ مُهاجراً المُكَيّ وَطناً، خادِمٌ تدريس العلم بالمسجد الحرام، تقبل الله أعماله.

إلى العالم العلامة المُحدِّث الأثريّ الحافظ الحجة الناقد، ذي المآثر العديدة، والتأليف النافعة المفيدة، الشيخ عبدالحكي الكتاني، جمعنا الله وإياه في دار التهاني والأمان.

أوجِبَ أنه لما كان العلم من بين دَوِيهِ أعظمَ رابطة، وقد تعارفت بالسَّيِّد السَّند سيدي مُحمد بن سيدي جعفر الكتاني ابن عمكم الشهير، وانتفعتُ به وأخذتُ منه إجازات عديدة، دعاني ذلك إلى محبة جميع هذه العائلة الكريمة، ولما كنت واسطة عَقْدِها في الإسناد، وسائر العلوم التي عليها في الديانة الاعتماد، أحببتُ أن أستجيزكم بالمراسلة... إلى أن قال في آخرها: وقد كتبت لكم الإجازة .. من باب رواية الأكابر عن الأصاغر⁽¹⁾.

وكانت هذه الرسالة مباركة - كما نقول في المثل الشعبي: «غَيَّبَتْ حليمة»- حيث إنها كانت سبباً لتأليف الكتاني لكتابه «فهرس الفهارس»⁽²⁾، وإجازة الشيخ محمد حبيب الله وأبنائه.

وقد أشار إلى ذلك الكتاني فقال في صدر كتابه:

الحمد لله وكفى، وسلام على عباده الذين اصطفى، أما بعد:

(1) فهرس الفهارس (1/ 53-55).

(2) صرح المؤلف بذلك في آخر كتابه عند نقله لتقريظ الشيخ محمد حبيب الله له، فقال: «تقريظ من أُلِّف هذا الكتاب لأجله وبطله، وهو العلامة النحرير المشارك المحدث سليل المجد الشيخ محمد حبيب الله الجكني الشنقيطي... فهرس الفهارس (2/ 1173).

فإن العلامة النحرير، الماجد المدرس الدراكة الشهير، صاحب التآليف النافعة والأبحاث الرائقة الذائعة، الشيخ محمد حبيب الله بن العلامة الشيخ سيدي عبدالله بن مايابا الجكني نسباً الشنقيطي بلداً المكي هجرة كتب إلي حفظه الله، من بلد أم القرى مكة المعظمة ... بتاريخ منتصف الحرام من سنة 1342 هـ كتاباً وصلني أواخر رمضان من سنته، يرغب إلي فيه أن أجيزه بمروياتي، وأبيح له التحديث عني بمسنداتي ومجموعاتي، مقترحاً علي أن تكون الإجازة مُشتملة على ما اتصلت به من الفهارس والأنبات، اختصاراً وتسهيلاً على الرواة، فصاذف مني هذا الاقتراح قبولاً، رغبة مني في إملاء ما تحصل لدي منه، وجمع شتات ما تفرق في المجاميع والبلاد والشيوخ، شكراً للنعمة به... إلى أن قال:

«قد أجزت محبي في الله الشيخ محمد حبيب الله الجكني وأولاده جميع ما تجوز لي روايته، وثبتت لي درايته، من جميع العلوم، المنطوق منها والمفهوم، إجازة عامة، مُطلقة تامة، يُحدث بها عني كيف شاء وأنى شاء، بشرطها المُعتبر عند أهل الحديث والأثر... (1).

ومن الصلات العلمية التي تربط الشيخ محمد حبيب الله بعلماء القرويين أن شيخه العلامة محمد بن جعفر الكتاني (ت 1345 هـ) من شيوخ القرويين فكان يُدرس مسند الإمام أحمد في القرويين «وناهيك بدرسه لمسند أحمد بن حنبل فقل أن رأيت القرويون مشهداً أكبر ولا أجمع من ذلك المحفل» (2).

وقد ذكر الشيخ محمد حبيب الله في كتابه دليل السالك إلى موطأ الإمام مالك، أثناء تعداده أسانده بالموطأ، إسناده برواية يحيى الليثي من طريق شيخه محمد بن جعفر الكتاني المذكور.

(1) فهرس الفهارس (1/ 49-50-57).

(2) فهرس الفهارس (1/ 518).

حيث قال:

فقد رويته عن الكتّاني العالم المحقق الرباني
أعني بذلك سيدي محمدا ابن الشريف جعفر خير الهدى⁽¹⁾

وأختم هذا المبحث بأعجب ما رأيته من عمق الصلات العلمية بين علماء القرويين وعلماء شنقيط وهو أن عبدالحكي الكتّاني - وهو عالم فاسي ومن شيوخ القرويين - يتصل بفهرسة ومرويات عالمن فاسيين - وهما البناني والتاودي - بإسناد رجاله كلهم شناقطة وقد استغرب هو نفسه من هذا الإسناد. حيث قال في ترجمته للبناني: وأتصل بفهرسته ومروياته بإسناد غريب مسلسل بأهل الصحراء - شنقيط - وهو أني أرويهما عن الشيخ الطائر الصيت أبي عبدالله محمد مصطفى ماء العينين الشنقيطي عن والده الشيخ محمد فاضل بن مامين عن الشيخ مصطفى الكيحل عن عبدالله بن إبراهيم العلوي صاحب «مراقي السعود» عن الشيخ بناني والشيخ التاودي ما لهما⁽²⁾.

(1) إضاءة الحالك من ألفاظ دليل السالك (ص 116).

(2) فهرس الفهارس (1/ 228).

✓ المبحث الثاني: نماذج متنوعة من الصلات العلمية بين علماء القرويين وعلماء شنقيط

إذا كانت الرحلة من أهم وأكبر الصلات العلمية بين علماء القرويين وعلماء شنقيط، كما رأينا، فهناك أمور أخرى مثلت جسورا للتواصل المعرفي بينهما نذكر منها على سبيل المثال:

- المراسلات العلمية بشتى أنواعها.

- تبادل التأثير والتأثر في المتون والمقررات الدراسية.

- التواصل الروحي بالطرق الصوفية....

1- المراسلات العلمية:

لقد جرى كثير من المراسلات العلمية بين علماء فاس وعلماء شنقيط شكل تواصل علميا مملوءا بالأخذ والعطاء، سواء في مجال:

• الإفتاء والاستفتاء

• أو في مجال اللُّغز ببعض المشكلات والمعضلات

• أو إرسال ما جد من نفائس المصنفات.

• فالمراسلات التي تتعلق بالإفتاء والاستفتاء كثيرة جدا فمنها على سبيل المثال:

الأسئلة المشهورة التي أرسلها علماء فاس في عهد أعل شنظورة أمير اترارزة فطُرحت على الشيخ المختار ابن اتشغ موسى، فأجاب عليها، وبعث لهم بأربعين سؤالاً⁽¹⁾.

(1) ينظر العقد الثمين في تاريخ أعلام علماء الموريتانيين (ص 12-32). ولم أقف على تفاصيل هذه الأسئلة وأجوبتها حتى الآن، نظرا لوجودي خارج البلاد.

ومن ذلك أيضا ما جاء في المنهل العذب السلسيل في حل ألفاظ خليل، لسلطان المغرب المشهور، لدى الخاصة والجمهور، السلطان المولى عبد الحفيظ العلوي: أن بعض علماء فاس سأل العلامة سيدي عبدالرحمن بن أحمد الشنقيطي⁽¹⁾ (ت 1224 هـ)، عن تقليد المكانة⁽²⁾ في الوقت فأجاب:

تقليد «المكانة» في الوقت جائز... ومن المعلوم عند الأصوليين (أن الأمر الذي لا يتم الواجب إلا به فهو واجب) لا سيما والبلد بلد غيم في أكثر الزمان لا يعرف النهار بها بالظل، ولا الليل بالنجوم، فسمت الحاجة إلى ما يعرف به الوقت في زمن الغيم، وما رأينا آلة أضبط منها في الغيم، فهي إما فرض عين على قول ابن الحاجب - معرفة الوقت فرض عين - أو فرض كفاية على قول القرافي - معرفة الوقت فرض كفاية - في إجراء المسائل مجرى المقاصد، وإعطاء الوسائل حكم المقاصد، ولا خلاف عندهم في إتباعه، وإنما الخلاف هل الوسيلة لها دليل يخصها، أم هي ثابتة بدليل مقاصدها⁽³⁾.

• وأما المراسلات باللغز فكان أكثرها شعرا، وهي أيضا كثيرة ومتنوعة، فمنها ألغاز قرآنية، وأخرى فقهية... إلا أن بعض هذه الألغاز التي وجهها بعض علماء شنقيط إلى علماء فاس، لم نقف على جوابها من قبلهم، ولعلها مازالت حبيسة المواصلات⁽⁴⁾.

فمن اللغز القرآنية ما كتب به العلامة سيدي عبدالله بن رازكه العلوي الشنقيطي⁽⁵⁾

(1) تقدمت ترجمته.

(2) بكاف معقودة: آلة ضبط الوقت.

(3) المنهل العذب السلسيل (1/26). نقلا عن مجلة المذهب المالكي، العدد الثاني (ص 72).

(4) إما لكون الأسئلة لم تصل الفاسيين، أو أن الأجوبة لم تصل الشناقطة، ويحتمل أنها وصلت ولم يطلع عليها الباحثون حتى الآن.

(5) هو عبد الله بن محمد بن عبد الله بن الطالب بن حبيب بن أبيج، يعرف بابن رازكه، بكاف معقودة وهي أمه، وهو أول علم ترجم له صاحب الوسيط: قال عنه: العالم النحرير، المقدم على أهل قطره من غير تكبر، كل عن مداه كل جواد، يعترف بذلك الحاضر والباد.. تنتظر ترجمته وقصائده الشعرية الرائعة، في الوسيط في تراجم أدباء شنقيط (ص 1-24).

(ت 1144 هـ) إلى علماء فاس وخصوصاً معاصره ابن زكري الفاسي⁽¹⁾ ملغزاً بالسر في الإتيان بالإظهار بدلاً من الإضمار في قوله تعالى في سورة يوسف الآية 76: ﴿فَبَدَأَ بِأَوْعِيَّتِهِمْ قَبْلَ وِعَاءِ أَخِيهِ ثُمَّ اسْتَخْرَجَهَا مِنْ وِعَاءِ أَخِيهِ﴾ ولم يقل «منه» بدل «أخيه»

فخاطبهم بقوله:

من العلم لم تُطعم لغير ذويه	شيوخ البيان الذائقين حلاوة
يَعْمَانُكُمْ من خامل ونبيه	سلام من الله السلام ورحمة
من البعدية يتصلن بتيه	سؤال غريب دون شنقيط أرضه
تشابه في عينيه وجّه متيه	إذا شبّه الهادي بها وجه مرشد
بنص بيان في البيان وجيه	قرأه لديكم، أهل فاس، جوابه
إذا ما هوى ظن بمختلجيه	سما بكم علم البيان وحقه
تبارك مجداً «من وعاء أخيه»	أسألكم ما سر إظهار ربنا
لأمر دقيق جلّ ثمّ يحيه	فلم يأت عنه «منه» أو «من»
فمرآتها أفكار كل نبيه	فإن تك أسرار المعاني خفية
تفردت في العلياً بدون شبيه	وأنت ابن زكريّ إمام محقق
وخلّيت عن سفسافه ورديه	إذا غصت في بحث خلّصت بدره

(1) هو الإمام العلامة أبو عبد الله محمد بن عبد الرحمن بن زكري الفاسي (ت 1144 هـ) أخذ عن الشيخ عبد القادر الفاسي، وميارة الصغير .. وعنه الشيخ محمد جسوس وغيره. له مؤلفات كلها غاية في التحقيق، منها حواشي على البخاري، وشرح فريدة السيوطي .. شجرة النور الزكية (2/ 284).

يمدك في الإتقان علم تبشه قياسُ أصوليٍّ ونصُّ فقيه
وقاك الذي أبداك كالنجم يتّقي به الغيِّ من يبغي الهدى ويعيه⁽¹⁾

ومن اللغز الفقهية ما وجهه العلامة محمد عثمان ابن اغشمت المجلسي⁽²⁾ إلى أهل مدارس فاس، حيث قال ملغزا:

إلى مدارسِ فاسِ الغرّ أسئلةٌ عيالمِ العلمِ أهلِ الحفظِ والمملكة
عن حاضِرٍ قسمَ مَترُوكٍ لَوَالِدِهِ صار البكاءُ لَهُ حَظًّا مِنَ التَّركَةِ
وما به مانعٌ في القَسَمِ يمنعه وحاز الابعـد عنه كل ما تركه⁽³⁾
وعن طوامث لا يُمنَعَنَّ أو جُنُبٍ من مسجـِدٍ وفروعِ الفقه مُشْتَبِكُهُ⁽⁴⁾

(1) ولم نقف على من أجابه من الفاسيين حتى الآن، وقد أجابه أحد علماء الشناقطة وهو الشيخ محمد بن سعيد اليدالي بقصيدة طويلة منها:

فهذا بحمد الله إيضاحُ لُغزِهِ مسأوله في بحرهِ ورويه
فلو قال فرضاً ربنا «من وعائه» فذالكم بعد التفكر فيه
يؤدي إلى عود الضمير ليوسفٍ فيفسد معناه لمختبريه
لأن الضمير في الصناعة عائد لأقرب مذكور هناك يليه
وإن قال «منه» أختل أيضاً لأنه يؤدي لعود مُضْمَرٍ لأخيه
فتنزِعُ منه الصاعُ لا من وعائه وتأنفُ من ذا نفسُ كلِّ نزيه
لما في انتزاع من أذي ومهانةٍ ولم يرد الرحمن ذا بَنِيهِ

ينظر الوسيط في تراجم أدباء شنقيط (ص 8-9). وتاريخ النحو العربي (ص 389).

(2) ذكره ابن حامد في مدرسة أهل اغشمت ولم يترجم له، وقال عنه هو والد محمد مولود المؤلف الأديب (ت 1327 هـ). حياة موريتانيا (2/ 326).

(3) يعني أن العمرى ترجع إلى من عمرها، لا على أهل المعمر عليه.

(4) يعني أن نساء أهل البيت يدخلن المسجد وهن حيض، وكذلك أهل البيت يدخلون المسجد متلبسين بالجنابة، ذكورا وإناثا. هكذا أجاب في الوسيط، وقد وقفت على إجابة أخرى في أبيات غير منسوبة

أريد منكم جواباً رائقاً حسناً نظماً وإلا فما أعطتكم الشبكة
ومن اللغز الفقهية أيضاً ما خاطب به أبناء الأسرة المشهورة بالعلم والصلاح «أهل
محمد سالم» علماء فاس.

فقال الفقيه أحمد بن محمد بن محمد سالم (ت 1302هـ):

أيا أهل فاس الغرّ لغز سياقه بنص خليل جا وفيه مساقه
أسائل ما عقد صحيح صداقه قد أبطله قبل البناء فراقه
وآخر فيه أكمل المهر كله على الزوج من قبل البناء طلاقه
فأجابه أحد علماء فاس:

فمن وهبت قبل البناء صداقها لزوج وذاك الزوج صح فراقه
فليس لها نصف بتطليق زوجها فما شطر المأخوذ منها طلاقه
وواهبته من مالها لخليلها قبيل البناء ما سيق منه صداقه
أريد منكم جواباً رائقاً حسناً نظماً وإلا فما أعطتكم الشبكة

وقال العلامة عبد القادر بن محمد بن محمد سالم:

لقائلها ضمن مجموعة أنظام قيدتها إبان دراستي لمختصر خليل، على شيعي محمد ولد أحمد ولد اعلي
رحمه الله تعالى، والأبيات هي:

فمن أبوه بإقرار قد أثبتة فمنع من أبيه أنه ملكة
وعادم الماء طهراً من جنابته إن يلف في مسجد ماء له سلكة
وفيه تدخل ذات الحيض حيث غدت بأجرة الكنس قبل الحيض مرتبة
إليك مني جواباً رائقاً حسناً والناس في الفقه والأشعار مشتركة

يا أهل فاس سؤالي نحوكم قَصْدًا
وفي السؤال سؤالات لكم وبكم
في مذهب الأصبحي اللغزُ مجتمع
فأين شخص إذا ما أمَّ يصلحها
وأيما رجل يرى من امرأة
ولتخبروا عن صلاة لم تكن بطلت
وأين وطء وأحداث وليس بها
وأين جهر مكان السرِّ تطلبه
وأيما امرأة بالحيض قد وصفت
وأيما زوجة إن أرضعت ولدًا
ترجيه نحوكم أيدي السعاة غداً
ينحل من عُقد الساعين ما ورداً
ونجل إسحاق فيه البعض قد وُجدا
وحيثما ائتم لم تصلح له أبدا
غير الذي نظرت منه ولا فندا
وعودها لازم لا زلتم رُشداً
نقض الوضوء وغسلُ ذاك ما عهدا
من المصلى لكي به ينال هُدى
صلت وصامت وتقضي صومها أبدا
تحرم على زوجها الرضعا الولدا⁽¹⁾

إلى غير ذلك من اللغز والتمرينات التي شكلت تواصلا معرفيا تتجلى فيه المكانة العلمية التي يحظى بها علماء فاس عند الشناقطة.

• وأما المراسلات بما جدَّ من البحوث والمصنفات، فكانت من الصلوات القائمة بين علماء القرويين وعلماء شنقيط، فمنها على سبيل المثال المراسلة التي جرت بين الشيخ محمد حبيب الله بن مايأبي، وأحد كبار شيوخ القرويين: عبدالحكي الكتاني⁽²⁾. حيث أرسل الأول للثاني رسالة جاء فيها:

... وقد أرسلت لكم على يد السيد أبي القاسم الدباغ ثلاث رسائل مما طبع من مصنفاتي: إحداها: منظومة تقرب الألف سميتها دليل السالك إلى موطأ مالك، بينت

(1) بلاد شنقيط المنارة والرباط (ص 278).

(2) تقدمت ترجمته.

فيها صحته ومساواته لصحيح البخاري، ورجوع ابن حجر في نكته على ابن الصلاح عما اعتمده من ترجيح البخاري عليه في مقدمة فتح الباري...

الرسالة الثانية: في أصح ما ورد في المهدي وعيسى عليهما السلام.

والثالثة: في اتصال سندي بالمصافحة بالنبي ﷺ.

هذا وعنواني إن أردتم مكاتبي الشيخ محمد حبيب الله بن ما يابى الشنقيطي المدرس بالمسجد الحرام...⁽¹⁾.

ولما ألف العلامة عبدالحى الكتاني كتابه (فهرس الفهارس) أرسل به من فاس إلى الشيخ محمد حبيب الله⁽²⁾.

كان هذا عن بعض المراسلات العلمية، التي شكلت تواصلا معرفيا بين علماء القرويين وعلماء شنقيط، فماذا عن التواصل المعرفي من خلال المقررات الدراسية.

2- تبادل التأثير والتأثر في المتون والمقررات الدراسية:

تكاد تكون المؤلفات والمتون المعتمدة عند علماء شنقيط في التدريس والإفتاء والقضاء منبعها فاسيا، أصالة أو تدريسا، أي أنها إما أن تكون من مؤلفات الفاسيين، أو من مقررات القرويين.

ويعزز ذلك اتفاقهم في المذهب المالكي⁽³⁾، والاعتقاد والسلوك السنيين.

(1) فهرس الفهارس (1/ 55).

(2) صرح بذلك محمد حبيب الله في تقريره (لفهرس الفهارس) فقال: «وحيث أني قد كنت من أسباب هذا التأليف المفيد، وما اجتمع فيه من فوائد الفرائد والنقل الحميد... فناسب ذلك تقريري له بعد ما أرسله إلي من فاس، واشتهر أني من أسبابه بين أفاضل الناس...». فهرس الفهارس (1/ 1174).

(3) وقد قال شيخنا العلامة نافع بن حبيب بن الزائد (ت 1416 هـ) رحمه الله تعالى:

ونحن لا نقتدي في دين مالكنّا إلا بالكنّا وحسبنا كَلْمُهُ

وأول متن يُدرس في المحاضر الشنقيطية يجمع هذه الفنون الثلاثة هو منظومة⁽¹⁾ ابن
عاشر الفاسي⁽²⁾.

وفيها يقول النابغة الغلاوي (ت 1245 هـ):

تتبع ألفاظ ابن عاشر كلها منذ خمسة عشر سنة وشرحته شرحين كبير وصغير..
وطالعت جملة من شروحه فلم أجد فيه قولاً ضعيفاً يخالف المشهور إلا قولين:
قوله: «سننه السبع...» والمشهور أنها ثمانية.

وقوله في نواقض الموضوع: «إلطاف مرأة...» والمشهور عدم النقص مطلقاً⁽³⁾.

(1) وقد سمعت شيخني الفقيه الورع محمد ولد أحمد ولد اغلي رحمه الله تعالى يقول عند شرحه لقول ابن عاشر:

وأسأل النفع به على الدوام من ربنا بجاء سيد الأنعام
قد أجيبت دعوته فقل أن تجد أحداً من الشناقطة إلا ويحفظ شيئاً من متن ابن عاشر إن لم يكن يحفظه
جميعاً، ولا تكاد تجد محطرة إلا وفيها طالب أو طلاب يقرأونه. هذا معنى كلامه رحمه الله تعالى.
ومن هنا يمكن القول أن علماء القرويين شيوخ الشناقطة قاطبة، لأن ابن عاشر من كبار شيوخ
القرويين.

(2) هو: عبد الواحد بن عاشر الأنصاري الأندلسي أصلاً الفاسي مولداً وقراراً، أخذ عن الشريف المري وأحمد
الكفيف... وعنه ميارة وعبد القادر الفاسيين وجماعة. له المنظومة المسماة بالمرشد المعين، رزق فيها القبول،
وشرح مورد الظمان في علم رسم القرآن... (ت 1040 هـ) وعمره 50 سنة. شجرة النور الزكية
(1/ 299-300). وله ترجمة وافية في مجلة المذهب المالكي العدد الثالث (ص 157-189). ذكر فيها أنه كان
يدرس في جوامع فاس ومدارسها جميعاً، ولكنه عرف كثيراً في جامع القرويين وكانت دروسه فيه متنوعة...
ودفن بفاس بأعلى مطرح الجنة بقرب المصل، وبني عليه قوس، في غربي روضة يوسف الفاسي، وجهه
جهة روضة سيدي يوسف، ومقبرته تسمى اليوم بمقبرة القباب. انتهى منها بتصرف.

(3) المباشر على ابن عاشر، للنابغة الغلاوي (ص 59). من نسخة منه بحوزتي.

ويقول النابغة عن شرحه هذا: وستضربون أكباد الإبل شرقاً وغرباً ولا تجدون شرحاً على هذا الكتاب
مثله، والله أعلم وفوق كل ذي علم عليم، وليس هذا من باب تركية النفس كما في المدخل لابن الحاج، بل

ثم يتدرجون في المتون المعروفة في جامع القرويين كالرسالة ومختصر الشيخ خليل وعليه الاعتماد، والتحفة ولامية الزقاق في القضاء، والمنهج، وتكميله لميارة الفاسي في القواعد...

والقاسم المشترك في الفقه بين علماء القرويين وعلماء شنقيط: الثلاثية المشهورة: «أنهم مالكيون وفي مالكيته قاسميون ثم هم خليليون».

وقد وضع علماء الشناقطة على هذه المتون عشرات الشروح، وعقدوا بعضها في أنظام تسهيلة لحفظها، واعتمدوا في شروحهم على نُقَادِ فاس، وخاصة مُحَيِّي عبد الباقي الزرقاني، وهم: التاودي والبناني والرهوني وكنون.

فقبلوا ما سلموه، وردوا ما ضعفوه، ورجحوا ما شهروه⁽¹⁾.

وإلى ذلك أشار النابغة الغلاوي⁽²⁾ بقوله:

ولا يتم نظر الزرقاني إلا مع التودي أو البناني
وقال قبل هذا البيت:

هو من باب قول خليل: «وندب ليشهر علمه»، ومن باب الدين النصيحة، ومن باب كونوا ربانيين لأن هذا الكتاب مرب، ومن باب «لتبينه للناس» وهذا الكتاب مبين. ص: من النسخة التي بحوزتي منه. وقال أيضا عند قول الناظم: أبياته أربعة أعشر تصل مع ثلاثمائة عد الرسل: وللناظم في ذكر عدد الرسل نية صالحة منها أنه أراد أن ينفع الله بكل بيت من نظمه كما نفع بكل رسول، فاستجاب الله له، وحقق رجاءه (ص 59). من النسخة التي بحوزتي.

(1) وإن اختلفوا معهم في بعض المسائل فليسان حالهم يقول:

ما في الجدل من التكذيب مغتفر شأن المجادل تكذيب وتأييب

طود المودة من لا يزعزعه من عاصف القول تأييب وتكذيب

(2) تنظر ترجمته في تحقيق: د. يحيى البراء لنظم بوطليحية.

ورجحوا ما شهر المغاربه والشمس في المشرق ليست غاربه⁽¹⁾

وتأثر علماء الشناقطة بمؤلفات الفاسيين، ومقررات القرويين لا يقتصر على المتون الفقهية فحسب، بل يعم معظم الفنون الأخرى، كالعقيدة وعلوم القرآن، والسيرة، والشئال، والقواعد، والنحو ونحوه... وتوضيح ذلك في الأمثلة التالية، (مع الاكتفاء بذكر كتاب واحد عن كل فن من أجل الاختصار).

ف عندهم:

- في العقيدة مثلاً: «إضاءة الدجنة في اعتقاد أهل السنة»⁽²⁾ للعلامة الشيخ أحمد المقرئ المغربي.

- وفي علوم القرآن: «الدرر اللوامع في أصل مقرأ الإمام نافع» للإمام علي بن محمد التازي المغربي المعروف بابن بري وما زال إلى يومنا هذا هو أول المقررات في هذا الفن عند طلاب المحاضر الشنقيطية، وإلى جانب عناية الطلاب به حفظاً ودراسة ومراجعة، تنضم عناية العلماء به شرحاً وتعليقاً وتوشيحاً وغير ذلك⁽³⁾.

- وفي السيرة النبوية: قرة الأبصار⁽⁴⁾ في سيرة المشفع المختار للعلامة عبدالعزيز بن عبدالواحد اللمطي المكناسي (من أهل فاس)⁽⁵⁾.

(1) نظم بوطليحيه (ص 72-92). تحقيق: د. يحيى البراء.

(2) ولهم عليها شروح وبعض الطرر والأنظام.

(3) وعدد الذين تناوله بالشرح والتوشيح، يناهز العشرين، وقد قدم د. محمد بن ملاي لائحة بأسمائهم. وأشار إلى ذلك د. محمد المختار ولد أباه، في تاريخ القراءات (ص 585-586).

(4) وقد وضعوا عليها من الشروح والتعليق ما يزيد على العشرة، حسب ما اطلعت عليه حتى الآن.

(5) تنظر ترجمته: كفاية المحتاج (ص 202). ونيل الابتهاج (1/ 304). وشجرة النور الزكية (2/ 160).

وفي الشمائل المحمدية: قصيدة⁽¹⁾ زروق الفاسي (ت 899هـ)⁽²⁾:

مرءاة الوصول في شمائل الرسول، عليه الصلاة والسلام.

- وفي النحو: مقدمة محمد بن محمد الفاسي، المعروف بابن أجروم (ت 723هـ)⁽³⁾.

تلك المقدمة التي ظلت المدخل الأول في تدريس النحو عند الشناقطة، وامتزجت عندهم بنظمها المشهور، لمحمد بن أبّ التشيتي (ت 1159هـ) الذي يعرف بـ«عبيد ربه»⁽⁴⁾.

ويقولون إن من قرأها أو قرأ نظمها فقد حصل على ما لا يسع جهله من هذا الفن، وفي ذلك يقول العلامة حيمد بن أنجبّان التندغي:

وفرض عين النحو في الجروم وفي عبيد ربّه المنظوم⁽⁵⁾

ويتجلى اهتمامهم بهذه المقدمة فيما وضعوه عليها وعلى نظمها من الشروح والتعليق، والتي لكثرتها يصعب حصرها، ويضيق الوقت عن ذكرها⁽⁶⁾.

(1) ومن شرحها النابغة الغلاوي، وعبد القادر بن محمد سالم المجلسي، وغيرهما، وعليها طرر كثيرة.

(2) هو: أبو العباس أحمد بن أحمد بن محمد البرنسي - بضم النون بعد الراء نسبة لعرب بالمغرب - الفاسي الشهير بزروق (846-899هـ)، العالم المحدث آخر أئمة الصوفية المحققين، من شيوخه: عبد الرحمن الثعالبي والولي إبراهيم التازي... وأخذ عنه جماعة من الأئمة كالشمس اللقاني والولي الشعراي... له تأليف كثيرة منها: شرحان على الرسالة وشرح على مختصر خليل، وكتاب القواعد في التصوف في غاية الحسن... نيل الإبتهاج (1/ 138-142). كفاية المحتاج (ص 71-72). وشجرة النور الزكية (2/ 118-119).

(3) تنظر ترجمته في شجرة النور الزكية (1/ 534).

(4) ولعل سبب التسمية هو قول الناظم في مطلعته: قال عبيد ربه محمد الله في كل الأمور أحمد.

(5) السيرة المتالية ص. من مخطوطة بحوزتي.

(6) فقد وضعوا عليها من الشروح والتعليق والأنظام ما يقارب الأربعين أو يزيد.

ويكفي من شدة اعتنائهم بهذه المقدمة أنهم نظموها باللهجة المحلية فـ«قد نظمها باللغة الحسانية، العالم الأديب محمد الحافظ بن السالك بن الطلبة نظماً سماه: نحو الأجرومية، في الأثواب الحسانية»⁽¹⁾.

إلى غير ذلك من المؤلفات المتداولة في المدرسة الشنقيطية التي تُظهر بجلاء مدى تأثر علماء شنقيط، بمؤلفات الفاسيين، ومقررات القرويين، دراسة وتدريساً وشرحاً وتعليقاً...

وفي المقابل نجد بعض مؤلفات الشناقطة تم اعتمادها في كتب الدراسة بالقرويين من ذلك:

- الفتوح القيومة على الأجرومية⁽²⁾ للقاضي أحمد بن اندغ محم (ت: ق 11 هـ)⁽³⁾.

- مراقي السعود لمبتغي الرقي والصعود. للأصولي سيد عبدالله بن الحاج إبراهيم (ت 1230 هـ). فهو يدرس بالقرويين حتى الآن.

(1) بدأه يقول:

أَلْ حَمْدُ مَا نَكْدُ انْحَدُ	الحمد لله الحي القيوم
والسلام حيث يدوم على عبدُ	واصلاة مولانا الكريم أدوم
المهدي كاملهم وبعُدُ	وءاله وأصحابه النجوم
بكلامنَ احنَ البطانَ وانْبُدُ	هَذا نَبغي نَنظُمَ آجَروم
وإياك إيكد يعرظوه ويكُدُ	إياك تتفع بيه الناس اليوم
كامل عند الشعب اعلى كد	يفهموه اكلام حسان مفهوم

تاريخ النحو العربي في المشرق والمغرب، د. محمد المختار ولد أباه (ص 439).

(2) مقدمة تحقيق فتح الشكور في معرفة أعيان علماء التكرور (ص 11).

(3) تنظر ترجمته في فتح الشكور (ص 39).

- فيض المنان في الرد على مبتدعة هذا الزمان⁽¹⁾، للفيقيه الطالب أحمد بن أطوير
الجنة⁽²⁾ (ت 1265 هـ).

هذه لمحة عن بعض الصلات العلمية، بين علماء القرويين وعلماء شنقيط، من خلال
تبادل التأثير والتأثر في المتون والمقررات الدراسية، فماذا عن الصلات العلمية من
خلال التواصل الروحي بالطرق الصوفية؟

3- التواصل الروحي بالطرق الصوفية

لقد عزز التواصل الروحي، الصلات العلمية بين علماء القرويين وعلماء شنقيط،
ذلك أن كثيرا من شيوخ الشناقطة، أخذوا أصول طرقهم الصوفية في فاس، عن كبار
الصوفية والأولياء المشهورين بين أفاضل الناس، ثم عاد هؤلاء القوم إلى بلادهم
لينشروا علومهم وتربيتهم الروحية والخلقية، فربطوا بذلك جسور الصلات العلمية
والروحية بين فاس وبلاد شنقيط.

ولعل من أبرز الشيوخ الشنقيطية دورا في هذا المجال وغيره، جنيد عصره، ومجاهد
دهره، الشيخ ماء العينين ولد الشيخ محمد فاضل (ت 1328 هـ).

حيث أسس زوايا⁽³⁾ مشهورة في المغرب بالإشعاع العلمي والروحي. منها زاويته
التي أسسها بفاس سنة 1314 هـ وأجاز بعض شيوخ القرويين، في العلم الظاهر
والباطن، كالعلامة عبدالرحمن بن جعفر الكتاني (ت 1334 هـ)، وأجاز الفيقيه عبدالله

(1) الرحلة (ص 184). نقلا عن تاريخ ابن أطوير الجنة (ص 30).

(2) تقدمت ترجمته.

(3) يرجع إلى المنارة والرباط (ص 281).

ابن عبدالسلام الفاسي الفهري (ت 1348هـ) إجازة عامة، وأخذ عنه أخوه: عبدالواحد بن عبدالسلام الفهري (ت 1361هـ) والد الزعيم المغربي المعروف غلال الفاسي⁽¹⁾.

حلف الزمان ليأتين بمثله حثت يمينك يا زمان فكفر

وفي الأخير أشير إلى أن مما ساعد في هذه الصلات العلمية بين علماء القرويين وعلماء شنقيط، ما حظي به شيوخ وعلماء الشناقطة عند سلطنة المغرب، من المكانة اللائقة بالعلم وأهله.

فكان لبلاد علماء شنقيط سفارة قديمة في البلاط الملكي بالمغرب، فقد تزوج سلطان المغرب مولاي إسماعيل العلوي الأميرة العالمة المثقفة خنثة بنت بكار بن عبدالله أمير البراكنة، وأنجبت له مولاي عبدالله الذي ولي الحكم بعده⁽²⁾.

وأقتصر على أمثلة من إكرام ملوك المغرب لعلماء شنقيط الذين قدموا فاساً خاصة.

من ذلك على سبيل المثال:

إكرام السلطان سيد محمد بن عبدالله، للعلامة سيد عبدالله ولد الحاج إبراهيم الشنقيطي (ت 1233هـ)

لما اشتهر أمر الشيخ سيد عبدالله بن الحاج إبراهيم بفاس، أرسل إليه السلطان سيد محمد بن عبدالله وكان عالماً ويحل العلماء، فلما ذكره أعجب به، وصار لا يصبر عن

(1) الشيخ ماء العينين علماء وأمرء في مواجهة الاستعمار الأوروبي (1/ 313-334-339). وفيه أسماء من أخذ عن الشيخ ماء العينين من العلماء وغيرهم، على الترتيب الهجائي (1/ 169-484).

(2) خنثة بنت بكار بن علي بن عبدالله: سيدة شنقيطية من بيت الإمارة البركني تزوجها السلطان المغربي العلوي مولاي إسماعيل سنة: 1089هـ فأنجبت له مولاي عبدالله الذي ولي الحكم بعده، موصوفة بالعلم، لها تقييدات على هامش الإصابة لابن حجر، وكانت تناظر العلماء، ترجم لها الناصر السلاوي في: الاستقصاء، وعباس الجراري في: ثقافة الصحراء، والزركلي في الأعلام.

نقل عن: بلاد شنقيط المنارة والرباط، 280-512.

مذاكرته⁽¹⁾. وبالف في إكرامه وكان «يعجبه ويعظمه، وأعطاه خزانة كتب كبيرة نفيسة جدا»⁽²⁾.

✽ إكرام السلطان المولى إسماعيل وابنه المولى محمد المعروف بالعالم، للعلامة سيد عبدالله بن محمد المعروف بابن رازكه الشنقيطي

كان ابن رازكه على صلة وثيقة بسلطان المغرب المولى إسماعيل، وكان ذلك وقت نبوغ ابنه المولى محمد المعروف بالعالم، الذي اشتهر علمه وفضله، فكان من خاصته - أي ابن رازكه - وكان يكرمه بما لم يقصر عما يذكر من إكرام الرشيد وأضرابه لمن توجهوا إليه⁽³⁾. وكان المولى محمد شديد الإعجاب بصديقه ابن رازكه الشنقيطي وفيه يقول وقد جاء من أرض القبلة (أقصى جنوب بلاد شنقيط):

هذا الحبيب الذي قد جاء من بعد والشمس قد أثرت في وجهه أثرا
فقلت يا عجباً للشمس في قمر والشمس لا ينبغي أن تدرك القمر
ويقول مقرظاً شعره:

أتانا من قرى شنقيط شعر تعالى فوق سحر الساحرينا
يقصر شعرنا عنه لو أننا بعثنا في المدائن حاشرينا⁽⁴⁾

إلى غير ذلك من صلوات المودة والإعجاب المتبادلين بين الشاعرين الأديبين المولى محمد العالم، والشيخ ابن رازكه.

(1) الوسيط (ص 38).

(2) فتح الشكور (ص 174).

(3) الوسيط (ص 1).

(4) بلاد شنقيط المنارة والرباط (ص 280).

﴿ إكرام السلطان المولى عبدالرحمن بن هشام العلوي، للفقير الطالب أحمد بن طوير
الجنة الشنقيطي (ت 1265هـ).

تحدث العلامة الطالب أحمد ولد طوير الجنة في رحلته عن العلاقات الطيبة التي تربطه
بالسلطان المولى عبدالرحمن بن هشام العلوي، وما قابله به من الإكرام والترحيب.

و«قد زود السلطان العلوي المولى عبدالرحمن بن هشام الرحالة ابن طوير الجنة
بمكتبة غنية يذكر في رحلته أنها حمل ثلاثين بعيرا من الصناديق»⁽¹⁾.

ما حظي به الشيخ ماء العينين الشنقيطي (ت 1328 هـ) من التعظيم والتبجيل عند
ملوك العلويين.

بدأت علاقة الشيخ ماء العينين بالملوك العلويين سنة: 1274هـ عند ما استقبله
السلطان المولى عبدالرحمن بن هشام في مدينة مكناس، وهو في طريقه إلى الحج، وكان
السلطان المولى عبدالرحمن محبا للصالحين، مقربا للعلماء، فطلب من الشيخ ماء العينين
أن يمكث معه إلى عيد الفطر، فأجابه الشيخ ماء العينين قائلا: أحب المكث عندكم،
وعدم البطء عن جدكم، وبيت ربكم، والأمر إليكم فانظروا ما ذا ترون، فأعجبه
جوابه، وقال له: بارك الله فيك، لا يكون إلا ما تحب، تسير غدا إن شاء الله إلى طنجة.

ثم توطدت علاقته بابنه السلطان محمد الرابع، ثم بلغت هذه العلاقة أوجها في
عهد السلطان الحسن الأول بن محمد، وفي عهد ابنه: عبدالعزيز وعبد الحفيظ،
وكان رَحْمَةُ اللَّهِ قد عاصر خمسة من ملوك الدولة العلوية.

كان هؤلاء الملوك يعتبرون الشيخ ماء العينين أكبر عالم جامع عرفته المنطقة.. ونال
عندهم حظوة ومكانة سامية⁽²⁾... وشهرة ذلك تغني عن ذكره.

(1) الرحلة (ص 160). نقلا عن تاريخ بن طوير الجنة (ص 29).

(2) الشيخ ماء العينين علماء وأمرأ في مواجهة الاستعمار الأوروبي (1/ 26-485).

✽ إكرام السلطان المولى عبد الحفيظ العلوي للشيخ محمد حبيب الله بن مايأني الشنقيطي (ت 1363 هـ)

خرج محمد حبيب الله مهاجرا من بلاده إبان الاحتلال الفرنسي فتوجه إلى المغرب، ونزل في ضيافة السلطان المولى عبد الحفيظ، فأسكنه معه ببلدة طنجة، وبالع في إكرامه، ورغب في استبقائه لمكانته العلمية، ولكنه فضل مواصلة السير لأداء الحج، وحين حج السلطان المولى عبد الحفيظ استصحبه معه إلى القدس والخليل، فكان رفيقه في حجه وزيارته⁽¹⁾.

كانت هذه أمثلة قليلة من إكرام ملوك المغرب لعلماء شنقيط، الذين ربطتهم صلات علمية بعلماء القرويين، وهناك أمثلة أخرى كثيرة يضيق الوقت عن ذكرها، فضلا عن تفصيلها وبيانها.

والله تعالى أسأل أن يكرمنا ويكرم الجميع في الدنيا والآخرة، إنه هو السميع المجيب.

الخاتمة:

كانت هذه إذن محاولة لرصد بعض مسيرة الصلات العلمية بين علماء القرويين وعلماء شنقيط، تم التوصل من خلالها إلى ما يلي:

أن من جهود علماء القرويين في خدمة المذهب المالكي، تلك الصلات العلمية، والجسور المعرفية التي أقاموها مع علماء المغرب والمشرق الإسلاميين، عموما ومع علماء شنقيط، خصوصا، وقد مهدت الجغرافيا في استمرار الصلات العلمية بين علماء القرويين وعلماء شنقيط، فضلا عن اتفاقهم في المذهب المالكي، والاعتقاد والسلوك السنيين.

(1) يرجع إلى: بلاد شنقيط المنارة والرباط (ص 281).

فظلت الصلوات بينهما رسالة خالدة، ومهمة إصلاحية، حملها العلماء، وساهمت في نشرها الرحلات الدينية، والمراسلات العلمية .. وتبادل التأثير والتأثر في المتون والمقررات الدراسية، والتواصل الروحي بالطرق الصوفية...

ومما ساهم في تعزيزها أيضاً، ما حظي به علماء الشناقطة عند سلاطين المغرب من المكانة اللائقة بالعلم وأهله.

والمتتبع لهذه الصلوات، يعلم ما كان بين هؤلاء الأعلام من سني الاتصالات، ووافر الروابط وكبير الصلوات، مع حفظ المودة، وكامل المحبة، يشهد لذلك ما سطروه في مؤلفاتهم، ودونوه في رحلاتهم، وكتبوه في مراسلاتهم.

فقد ترجم الطالب محمد بن أبي بكر الصديق (ت 1219 هـ) صاحب فتح الشكور - الذي أفرده لتراجم علماء شنقيط - لعلماء فاسيين ضمن علماء الشناقطة، وإنما فعل ذلك حباً لهم، ورجاء بركتهم كما قال⁽¹⁾.

وقال الفقيه الطالب أحمد بن أطوير اللجنة (ت 1265 هـ) في رحلته المشهورة (رحلة المنى والمنة): «وجئنا يوماً إلى جامع القرويين فوجدنا فقيها يدرس في الأكرية من مختصر خليل، وسلمت عليه ومعني جماعة من حجاجنا، فتجارينا في الحديث، إلى أن بلغنا التعريف بشيخي، بعد أن سألوني عنه، فأخبرته أنه قرأ العلوم بفاس وشيخاه في ذلك الوقت سيدي محمد البناني، وسيدي محمد التاودي بن سودة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، فقال لي الفقيه المدرس: أنت بضعة منا أولئك منا وآخرك منا»⁽²⁾.

(1) كما أشار إلى ذلك في مقدمة فتح الشكور (ص 26)، وتنظر تراجم الفاسيين الذين ترجم لهم (ص 151-152). و(ص 217) وما بعدها.

(2) الرحلة (ص 43. نقلا عن تاريخ ابن طوير اللجنة (ص 29-30).

وجاء في رسالة الشيخ محمد حبيب الله بن مايأبى (ت 1363 هـ) التي وجهها إلى شيخ القرويين في عصره عبدالحى الكتاني: إنه السلام التام... أوجبّه أنه لما كان العلم بين ذويهِ أعظمَ رابطة، وقد تعارفت بالسَّيِّد السَّنْد سيدي مُحمد بن سيدي جعفر الكتاني ابن عمكم الشهير، وانتفعتُ به وأخذتُ منه إجازات عديدة، دعاني ذلك إلى محبة جميع هذه العائلة الكريمة...⁽¹⁾.

أولائك آبائي فجئني بمثلهم إذا جمعنا يا جريـر المـجامع

توصيات:

- المحافظة على استمرار هذه الصلات، لما في ذلك من صلة الرحمين: النسبي والعلمي، وتوثيق الروابط الإسلامية المبنية على روح التسامح والتواصل والتآخي، والوفاء بأواصر الصداقة والمحبة، وحق الجوار.

- أن نحاول قراءة ما ترك لنا هؤلاء العلماء، وتحقيق ما كتبوا، فإنه آن الأوان لنعود إلى رصيدنا الفقهي، لننهل من معينه، ونستلهم منه الدروس والحلول لكثير من الأدواء المعاصرة.

- دراسة حياة شيوخنا الأعلام، لكي نتأسى بهم ونقتدي بهم ونحذو حذوهم.

وقد قال بعض الحكماء: دراسة حياة الأجداد، تربي أخلاق الأبناء والأحفاد، لما فيها من الحكمة البالغة الحسنة، والموعظة المستحسنة.

وقديماً قيل :

وتشبهوا إن لم تكونوا مثلهم إن التشبه بالكـرام فـلاح

(1) فهرس الفهارس (53/1).

وإني إذ أشكر مركز دراس بن إسماعيل لتقريب المذهب والعقيدة والسلوك التابع للرابطة المحمدية للعلماء، على طرح هذا الموضوع المهم، للإطلاع على الجهود التي قام بها ويقوم بها علماء القرويين في خدمة المذهب المالكي، أشكره لمتابعة تقريب المذهب والعقيدة والسلوك السنيين.

فَرَّبَ مَدَحٍ عَظِيمٍ كَانَ عَجْزُكَ عَنْ إِبْدَائِهِ هُوَ عَيْنَ الْمَدَحِ تَبْدِيدِهِ

والله أسأل أن ينفعنا بهذه المشاركة، وأن يكون لنا ولياً ونصيراً، كفى به ولياً وكفى به نصيراً. وصلى الله وسلم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، والحمد لله رب العالمين.

أبوظبي: 25 / 4 / 1432 هـ الموافق: 30 / 3 / 2011 م

قائمة بأهم المصادر والمراجع على الترتيب الأبجدي

1. إضاءة الخالك من ألفاظ دليل السالك إلى موطأ الإمام مالك. للشيخ محمد حبيب الله بن مايأبى الجكني الشنقيطي (ت1363هـ). تحقيق وتعليق المنشاوي، دار الفضيلة: 2006م.
2. الأعلام الشرقية في المائة الرابعة عشرة الهجرية، تأليف زكي محمد مجاهد، دار الغرب الإسلامي. الطبعة الثانية: 1994م. بيروت، لبنان.
3. التواصل الفكري والروحي بين المغرب الأقصى والمشرق الإسلاميين (مصر والحجاز) أسسه ومظاهره. من بداية القرن السابع إلى أواخر القرن الثامن الهجريين. د. السعيد المليح. المجمع الثقافي أبوظبي، الإمارات العربية المتحدة. 1425هـ 2005م.
4. سلوة الأنفاس ومحادثة الأكياس بمن أقبر من العلماء والصلحاء بفاس، تأليف شيخ الإسلام الشريف أبي عبدالله محمد بن جعفر بن إدريس الكتاني (ت1345هـ) تحقيق: عبدالله الكامل الكتاني، وحمزة بن محمد الطيب الكتاني ومحمد حمزة بن علي الكتاني، دار الثقافة، الدار البيضاء، الطبعة الأولى، 1425-2004.
5. السيرة المتالية، للعلامة حيمد بن انجبنا، نسخة مخطوطة بحوزتي.
6. الشيخ ماء العينين علماء وأمرء في مواجهة الاستعمار الأوروبي، تأليف الطالب أخيار بن الشيخ ما مينا آل الشيخ ماء العينين، الطبعة الأولى: 2005م، الناشر مؤسسة الشيخ مرييه ربه لإحياء التراث والتبادل الثقافي.
7. العقد الثمين في تاريخ أعلام علماء الموريتانيين في رحلة العلامة محمد يحيى بن محمد الأمين اليعقوبي الشنقيطي (ت1348هـ)، تقديم الشيخ محمد سالم ولد عدود، تحقيق الجزء الأول: ذ/ الحسن محمد الأمين بن عبدالكريم (آبيه).

8. المباشر على ابن عاشر لمحمد النابغة بن عمر الغلاوي (ت 1245هـ). مخطوط بحوزتي.
9. الوسيط في تراجم أدباء شنقيط، تأليف أحمد بن الأمين الشنقيطي. الطبعة السادسة: 1429هـ 2007م. الناشر مكتبة الخانجي بالقاهرة.
10. بلاد شنقيط المنار والرباط، تأليف الخليل النحوي. تونس: 1987م
11. تاريخ ابن اطوير الجنة، الطالب أحمد بن طوير الجنة الحاجي الوداني (ت 1265هـ) تحقيق سيد أحمد بن أحمد سالم، مطبعة المعارف الجديدة - الرباط. 1994م.
12. تاريخ القراءات في المشرق والمغرب، تأليف د. محمد المختار ولد أباه. دار الكتب العلمية، الطبعة الثالثة: بيروت.
13. تاريخ النحو العربي في المشرق والمغرب، تأليف: د. محمد المختار ولد أباه، منشورات: إيسيسكو (1417هـ - 1996م).
14. حياة موريتانيا للمختار بن حامد، الحياة الثقافية، الدار العربية للكتاب: 1990م
15. شجرة النور الزكية في طبقات المالكية، تأليف: محمد بن محمد مخلوف (ت 1360هـ)، تحقيق: د. علي عمر، الناشر مكتبة الثقافة الدينية، الطبعة الأولى: 1428هـ 2007م القاهرة.
16. فتح الشكور في معرفة أعيان علماء التكرور، تأليف: الطالب محمد بن أبي بكر الصديق البرتلي الولاتي، تحقيق: محمد إبراهيم الكتاني، ومحمد حجي، دار الغرب الإسلامي، الطبعة الثانية: (1428هـ - 2007م).

17. فهرس الفهارس والإثبات ومعجم المعاجم والمشيوخ والمسلسلات، تأليف عبدالحفي بن عبدالكبير الكتاني، باعثناء الدكتور عباس، دار الغرب الإسلامي، الطبعة الثانية: 1402هـ 1982م.
18. كفاية المحتاج لمعرفة من ليس في الديباج (في تراجم المالكية)، تصنيف: العلامة أحمد بابا التنبكتي (1036هـ)، ضبط النص وعلق عليه: أبو يحيى عبدالله الكندري، دار ابن حزم، الطبعة الأولى: 1422هـ - 2002م، بيروت - لبنان.
19. مجلة المذهب المالكي العدد الثاني، خريف 1427هـ 2006م.
20. نظم بوطليحيه لمحمد النابغة بن عمر الغلاوي (ت 1245هـ)، تحقيق ودراسة: د. يحيى بن البراء، الطبعة الثانية: (1425هـ - 2004م) المكتبة المكية، مؤسسة الريان، للطباعة.
21. نيل الابتهاج بتطريز الديباج، لأحمد بابا التنبكتي (ت 1036هـ)، تحقيق: د. علي عمر، الناشر مكتبة الثقافة الدينية - القاهرة، الطبعة الأولى: 1423هـ - 2004م.

